بسم الله الرحمن الرحيم

خطاب تأبين(*)

المرحوم الأستاذ الدكتور حسن عثمان

ألقـــاه

الأستاذ الدكتور محمد محمود السروجي

أستاذ التاريخ الحديث بجامعة الاسكندرية

إنه لمما يشق على نفسى أن أقف بين أيديكم مؤبناً أستاذاً لى ، وعالما من علماء مصر المخلصين ، وهب للعلم جهده وماله وحياته .

ربطتنى بالراحل الكريم رابطة الطالب بأستاذه منذ أن أنشئت جامعة الإسكندرية فى عام ١٩٤٢ ، وكان — حينذاك — في بداية حياته العلمية يملأه النشاط والحيوية والثقة بالنفس ، والأمل فى المستقبل . وجذبنى إليه

(*) أقيم حفل التأبين بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية مساء الإثنين ٢٥٠/٢/١٩٧٤ .

إيمانه الشديد بحرية الفكر ، واحترامه لنفسه ولعلمه ، وبعده عن الصغائر ، وغزارة مادته ، واستمرت هذه العلاقة تزداد توثقاً على مر الأيام ، وكر السنين إلى قبيل وفاته — رحمه الله — بساعات معدودات .

وإذا أردنا أن نلم بجوانب تلك الشخصية الكريمة إلماما شاملا وسريعاً ، يجب أن نرجع إلى الوراء بضع عشرات من السنين ، أيام أن كان طالبا بكلية الآداب جامعة القاهرة ، ينهل من ينابيع العلم على يد الرعيل الأول من علماء مصر . وقد عرف خلال دراسته باجتهاده ونشاطه الدائب وراء طلب العلم . ولم يكن حصوله على درجة الليسانس فى التاريخ بدرجة الامتياز، فى عام ١٩٣٢ إلا ثمرة لكفاحه من أجل الحصول على أعلى الدرجات . ورغم ذلك فقد عين فى نفس السنة مدرساً بمدرسة امبابة الابتدائية بمجلس مديرية الجيزة .

وبعد حصوله على درجة الماجستير فى الآداب بمرتبة الشرف الثانية من جامعة القاهرة فى مايو ١٩٣٤ ، سافر فى نهاية تلك السنة إلى إيطاليا كعضو بعثة لكلية الآداب جامعة القاهرة ، للحصول على الدكتوراه فى تاريخ الشرق الأدنى الحديث من جامعة روما .

وفى سبتمبر عام ١٩٣٥ حصل على دبلوم فى اللغة والأدب الإيطالى من جامعة بيرودجا للأجانب ، تمهيداً لنيل درجة الدكتوراه فى الآداب والفلسفة التى حصل عليها مع مرتبة الشرف من جامعة روما فى ديسمبر عام ١٩٣٨ .

وسرعان ماعين — عقب عودته مباشرة — مدرسا مساعدا بكلية الآداب جامعة القاهرة ، واستمر بتلك الدرجة إلى أكتوبر عام ١٩٤٢ ، حيث نقل إلى كلية الآداب جامعة الاسكندرية عند إنشائها فى تلك السنة ، ليشغل وظيفة مدرس فى التاريخ الحديث .

وفى مارس ١٩٤٧ حصل على وظيفة أستاذ مساعد بنفس الكلية ، ومكث فيها إلى أول ديسمبر عام ١٩٥٠ ، حيث نقل إلى معهد الدراسات السودانية بجامعة القاهرة كأستاذ لكرسى تاريخ السودان وآثاره . وما أظنه كان مرتاحا لهذه النقلة ، لأنه كان يحب الاسكندرية ويود ألا يفارقها أبداً .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانت الدراسة فى المعهد المذكور بعيدة عن اهتماماته .

ومنذ عام ١٩٦٤ تولى منصب رئيس المعهد إلى أن أحيل إلى المعاش فى عام ١٩٦٨ . وظل ـ رحمه الله ـ يشغل وظيفة أستاذ تاريخ السودان حتى وفاته فى ٢٩ أكتوبر ١٩٧٣ .

فى هذه الفترة الطويلة من حياته العملية كتب العديد من الكتب والأبحاث العلمية باللغات العربية والإيطالية والإنجليزية .

وإذا تناولنا الأبحاث التى قام بها نجدها عديدة ومتنوعة ، وإن كان معظمها يدور حول الشاعر الإيطالى دانتى الذى أفنى الراحل الكريم معظم حياته من أجل نشر أهم أعماله نشراً علمياً محققاً ، وتلك الأبحاث هى :

ـ البحر الأحمر كطريق تجارى فى عهد البيزنطيين والعرب والمماليك .

ـ دير الأنبا أنطونيوس .

وقد نشر البحثان فى كتاب بعنوان « رحلة كلية الآداب إلى ساحل البحر الأحمر وبعض مناطق الآثار بالوجه القبلى » اشترك فى وضعه بعض أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب جامعة القاهرة فى عام ١٩٣٢ .

ـ كتابة سبع مقالات بمجلة الرسالة تحت عنوان « كيف يكتب التاريخ » وذلك فى الفترة من أغسطس إلى ديسمبر ١٩٤١ . وكانت تلك المقالات

هى نواة كتاب « منهج البحث التاريخى » الذى صدر بعد ذلك بعامين .

وكان ـ رحمه الله ـ يفضل قبل البدء فى تأليف كتاب عن موضوع معين أن يمهد له أولا بالعديد من المقالات التى تصبح بعد ذلك الهيكل الرئيسى فى الكتاب المزمع وضعه .

ـ فخر الدين الثانى أمير لبنان وبلاط تسكانا (١٦٠٥ - ١٦٣٥) للأب بولس قرالى . وقام فى هذا البحث بعرض الموضوع ونقده ، مع تقديم وثائق لم تنشر عنه، بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد السادس فى عام ١٩٤٢ .

ـ كتابة بعض المقالات بمجلة الثقافة عن « سافونا رولا » فى الفترة من سبتمبر ـ نوفمبر ١٩٤٢ . وكانت هذه المقالات هى نواة كتابه عن سافونا رولا ، الذى نشره فى عام ١٩٤٧ .

ـ سوريا ولبنان (فى التاريخ المعاصر) لألبرت حورانى : عرض وتحليل ونقد لما جاء بهذا الكتاب . نشر بالمجلة التاريخية المصرية ، المجلد الأول ، فى أكتوبر ١٩٤٨ .

أما أبحاثه عن دانتى فكثيرة منها :

ـ دانتى اليجييرى: حياته وشخصيته ، وقد نشر بمجلة الكاتب المصرى، المجلد الثامن ، العدد ٣١ فى أبريل ١٩٤٨ .

ـ فرنتشيسكا دارميني عند دانتى اليجييرى ، وهى ترجمة وتحليل وشرح وتعليقات ، مع تقديم نص من « الجحيم » ، نشرت بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الحادى عشر ، الجزء الأول ، مايو ١٩٤٩ .

ـ فارينا تا دلّى أوبرتى ، وكافالكانتى دى كافالكانتى فى جحيم دانتى ، وهى ترجمة وتحليل وشروح وتعليقات حول هذا الموضوع ، مع تقديم نص من « الجحيم » . وقد نشرت بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الثانى عشر ، الجزء الثانى ، ديسمبر ١٩٥٠ .

ـ الأنشودة الخامسة من مطهر دانتى ، قام بترجمتها وتحليلها وشرحها والتعليق عليها ، مع تقديم نص من « المطهر » ونشرت بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الثامن عشر ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٨ .

وكان لتدريسه بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية أثره فى دراسته للكوميديا الإلهية ، إذ بدأ يهتم بما ذكره دانتى عن أفريقيا فى هذه الملحمة الشعرية الكبيرة . فكتب بحثين عن أفريقيا :

الأول : « إفريقيا فى جحيم دانتى » قام فيه بترجمة بعض النصوص الواردة بهذا الخصوص ، مع تحليل وشروح وتعليقات . ثم قدم نصوصا من الجحيم للاستشهاد بها . وقد نشر هذا البحث فى مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، العدد العاشر فى ١٩٥٦ .

والثانى : « أفريقيا فى مطهر دانتى » ، وهو على غرار البحث الأول ، ونشر بمجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، العدد ١٤ سنة ١٩٦٠ .

وكتب باللغة الإنجليزية بحثا عن :

Dante in Arabic, in the seventy third Annnual Report of Dante Society of America, Widner Library, Harvard Univérsity, Cambridge Massachusettes, USA. 1955.

ـ مقدمة بالايطالية والعربية لكتاب الأستاذ طه فوزى عن « دانتى اليجيرى » القاهرة ، ١٩٦٥ .

Dante e il Mondo Arabo, nella rivista "Fatti e Notizia" della ' Pirelli ", agosto 1967.

أما عن الكتب التى ألفها أو ترجمها فهى :

— فخر الدين بن معن (رسالة الماجستير فى ١٩٣٤ ، وهى لم تطبع حتى الآن) .

Fakhr — ud — Din II Emero del Libano e le sue Relazioni con l'occidente, con Documenti Inediti, P. I. Roma, 1938.

(وهى رسالة الدكتوراه ولم تنشر إلى الآن) .

— تاريخ مصر فى العهد العثمانى (١٥١٧ - ١٧٩٨)، نشره بالاشتراك مع الأستاذ محمد توفيق، فى كتاب « المجمل فى التاريخ المصرى» لبعض أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب جامعة القاهرة فى ١٩٤٢ . وهذا الجزء خلاصة مركزة لمعالم تاريخ مصر العثمانية فى الفترة السابقة لمجىء الحملة الفرنسية ، تلك الفترة التى لم تنل عناية المؤرخين بعد . ولقد ألقى هذا الجزء من الكتاب الضوء على الجوانب المتعددة من تاريخ تلك الفترة لشد انتباه الباحثين إليها .

— « منهج البحث التاريخى » ، صدرت الطبعة الأولى منه فى عام ١٩٤٣ . والكتاب على درجة كبيرة من الأهمية ، لأنه يسد ثغرة فى المكتبة العربية ، لقلة عدد الكتب العربية التى تناولت هذا الموضوع بالبحث . ومن ثم فالكتاب لا غنى عنه لأى باحث فى التاريخ ، ولاسيما فى التاريخ الحديث . وما زال الكتاب يدرس بجامعاتنا لطلبة الدراسات العليا حتى يومنا هذا . وكان رحمه الله يعتز به . وقد صدرت منه ثلاث طبعات .

— « سافونا رولا : الراهب الثائر » ، صدرت فى عام ١٩٤٧ ، وترجم إلى اللغة التركية ، وطبع باستانبول . وقد حصل هذا الكتاب على جائزة الدولة فى صورة بعثة إلى الخارج فى ١١ فبراير ١٩٤٩ . وكان هذا الكتاب يحتل منزله خاصة لديه ، لما اتصف به سافونا رولا من خصال تستهويه .

على أن أهم عمل قام به الراحل الكريم هو ترجمته للكوميديا الإلهية . وقد قام بنشرها فى الفترة من ١٩٥٩ ــ ١٩٧٢ بعد دراسة استمرت قرابة العشرين عاما .

ــ صدر النشيد الأول : « الجحيم » فى عام ١٩٥٩ مع مقدمة وترجمة وتحليل وشروح وتعليقات ، وصدرت طبعـــة ثانية مزيدة ومنقحة فى سنة ١٩٦٧ .

ــ وصدر النشيد الثانى: «المطهر» ، مزودا بمقدمة وترجمة وتحليل وشروح وتعليقات وتذييل فى سنة ١٩٦٤ .

أما النشيد الثالث والأخير من الكوميديا الإلهية وهو الفردوس ، فقد صدر فى سنة ١٩٧٢ ، مع مقدمة وترجمة وتحليل وشروح وتعليقات وملاحق وتذييل .

وقبل أن أتحدث عن هذا العمل الكبير الذى خصص له الراحل الكريم كل حياته تقريبا ، يجدر بى أن أنوه إلى حركة الترجمة فى مصر التى بدأت برفاعة رافع الطهطاوى والتى مازالت مستمرة حتى يومنا هذا .

لقد استأثر الأدب الإنجليزى والأدب الفرنسى بالنصيب الأوفى من أهتمام المترجمين ، وتليه الآداب اليونانية واللاتينية القديمة . ولكن الأدب الإيطالى لم يكن موضع جذب لهؤلاء . ولذا يعد الراحل الكريم من الرعيل الأول فى هذا الميدان .

وإذا عددنا الملاحم الخالدة فى التراث الإنسانى ، وجدناها أربع ملاحم هى: الألياذة والأوديسة للشاعر هوميروس، والأنياده للشاعر اللاتينى فرجيل أو فرجليوس ، والكوميديا الإلهية لدانتى .

فالكوميديا إذن تعد بحق إحدى هذه الروائع الخالدة ، وقد لقيت ماتستحقه من عناية وتحقيق . ونقل الكوميديا إلى العربية لا يعد مجرد نقل، أو مجرد ترجمة شأنها فى ذلك شأن الترجمات الأخرى . بل إن الأمر أخطر وأعمق من هذا بكثير . فقد تطلب هذا الأمر الرجوع إلى مختلف الطبعات التى صدرت للكوميديا باللغات الإنجليزية والفرنسية ، بالإضافة إلى اللغة الإيطالية . وكان هدفه من ذلك التعمق فى دراسة النص وفهم معناه الظاهرى والباطنى ، ليستطيع نقله إلى العربية بكل صدق وأمانة .

بل لقد ذهب إلى أبعد من هذا الحد ، فأمانته العلمية فرضت عليه أن يزور العديد من الأماكن التاريخية التى أقام فيها دانتى أو زارها ، وأن يعيش تحت سمائها ، ليحس بما أحسه دانتى ليكون أقدر على فهمه . ولم يبخل فى سبيل ذلك بجهد أو مال ، طالما كان يوصله إلى هدفه المنشود . ولذ فقد سافر العديد من المرات ، ومر بمختلف القرى والمدن ، وتسلق الجبال ، وعبر الأنهار من أجل الوصول إلى الحقيقة .

وطريقته فى الترجمة — كما أوضحها بنفسه — هو أن يجمع النص المترجم بين المحافظة على المعنى « مع روح البيان العربى بشىء من الرونق الشعرى ، الوارد فى اللغة الأصلية » .

هذا فضلا عن المقدمات والشروح والتعليقات التى تتناول النص من جميع جوانبه والتى تبرز الشخصيات الحقيقية والخالية التى اشتمل عليها ، وكذلك أهم القضايا المتعلقة بها ، والحكمة الخافية من وراتها .

وبرغم هذا الجهد الكبير الذى بذله المرحوم الدكتور حسن عثمان العالم المحقق ، والذى استحق من أجله تكريم مختلف الهيئات الأجنبية العالمية ، فلم يعرف الغرور طريقا إلى نفسه ، وظل يحتفظ بتواضع العلماء ، هـــذا

التواضع الذى كان أهم صفة من صفاته . ويبدو هـذا من تقييمه لترجمة الكوميديا ، إذ يقول :

« ليس من السهل أن يتحدث الإنسان عن نفسه . ومع هذا فأنا أرى عملى أو جهدى مجهودا لا بأس به ، جاء نتيجة المحبة ، والمعايشة الطويلة ، والتذوق. وأظن أن تقدير هذا العمل ، فى نظرى . باعتبارى من المشتغلين بالتدريس، يستحق سبع درجات من عشر . وأرجو أن يأتى فى المستقبل من يأتى بترجمة أفضل من هذه » .

الجوائز العلمية التى حصل عليها :

نال الراحل الكريم العديد من الجوائز تقديراً لمجهوداته العلمية فى مجال الدراسات الدانتية . فحصل على ميدالية « أسكار داماليا » الذهبية الدولية ، باسم اللجنة الدولية لوحدة الثقافة وعالميتها مع أستاذين آخرين فى العالم، وذلك فى مدينة روما فى ٣ يونيه ١٩٦٥ ، بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية السابعة لميلاد دانتى .

ونال جائزة الدولة التشجيعية فى فن الترجمة وقدرها ٥٠٠ جنيه مع وسام المعارف من الدرجة الأولى ، وميدالية برونزية فى ١٨ ديسمبر ١٩٦٥ .

وجائزة اللجنة الوطنية الإيطالية الدانتية وقدرها مليون ليرة إيطالية ، مع سبعة أساتذة آخرين من العالم ، فى فلورنسا فى ٣٠ أبريل ١٩٦٦ .

وجائزة من وزارة الخارجية الإيطالية وقدرها ٣٠٠,٠٠٠ ليرة، فى روما، فى ٢٨ يوليه ١٩٦٦ .

والميدالية الذهبية من المجمع العلمى للعلماء الدانتيين ، فى روما فى ٢٧ نوفمبر ١٩٦٦ . وقد منحت هذه الميدالية لأربعة علماء متخصصين فى الدراسات الدانتية، كان رحمه الله أحد هؤلاء الأربعة .

والميدالية الذهبية من « جمعية دانتى اليجييرى » فى بالرمو فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٦٦ .

وحصل فى ٨ مايو سنة ١٩٧٣ على درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة باليرمو بصقلية .

المؤتمرات التى اشترك فيها :

اشترك الراحل الكريم فى الكثير من المؤتمرات العلمية نورد بعضها .

(ا) المؤتمر الدولى الدانتى فى فلورنسا فى أبريل ١٩٦٥ .

(ب) المؤتمر الدولى الدانتى فى أفنيون فى ١٤ و١٥ أكتوبر ١٩٦٥ .

(ج) دعى لحضور مؤتمر المائدة المستديرة فى اليونسكو فى باريس من ٢٧ – ٢٩ أكتوبر ١٩٦٥ ، ولكنه اعتذر عن الاشتراك .

(د) وحوالى عام ١٩٦٤/٦٣ سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإلقاء بعض المحاضرات وحضور بعض الندوات فى الدراسات الدانتية .

وكان – رحمه الله – عضوا بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، وعضوا بجمعية دانتى فى الولايات المتحدة الأمريكية ومقرها جامعة هارفارد، وذلك منذ عام ١٩٥٤ ، وعضوا نخريا فى المجمع العلمى للعلماء الدانتيين فى روما منذ عام ١٩٦٦ .

هواياته :

عكف رحمه الله – على دراسة وتذوق الفنون التشكيلية ، والفنون الموسيقية والمسرحية فى المتاحف ، والمعارض ، والمعاهد ، والكاتدرائيات، والكنائس ، والأديرة ، ودور العزف ، ودور التمثيل ، وفى المراجع ،

والتسجيلات الموسيقية والصوتية ، فى أثناء رحلاته العديدة إلى الخارج وبخاصة فى الفترة من ١٩٣٤ إلى ١٩٦٧ .

وكانت مكتبته الخاصة تحتوى على المئات من المراجع التى تتناول مختلف الفنون ، والأسطوانات ، والأشرطة الموسيقية .

وكان يميل — بوجه خاص — إلى موسيقى الباروك أو Pre classic، وكذلك إلى المدرسة الإيطالية فى الموسيقى، ومن أعلامها تارتينى، وسكارلاتى وفرسكو بالدى وغيرهم . وحبه للموسيقى دفعه إلى ذكر الأعمال الموسيقية المتعلقة بالكوميديا فى كل مجلد من مجلداتها الثلاثة .

وقد جمع فى هذه المكتبة كل ما كتب عن دانتى، إذ حوت ما يقرب من سبعمائة مجلد فى هذا الموضوع وحده .

أعماله التى لم تتم ولم تخرج إلى حيز التنفيذ:

إذا كانت ترجمة الكوميديا الإلهية هى آخر أعماله الجيدة التى نشرها ، فلم تكن هى آخر أعماله على وجه الدقة . فما أن فرغ من ترجمته للكوميديا حتى بدأ فى ترجمة أثر آخر من آثار دانتى وهو La vita nova ، وقد انتهى منه بالفعل ، وبدأ عملية التحليل والتعليقات وإن كانت لم تتم بعد على أغلب الظن . ولذا فإنى أرجو أن يرى هذا العمل النور ، وأن تهتم الهيئات العلمية بنشره .

كذلك كان ينوى القيام بترجمة الأعمال الصغرى لدانتى أو ما تسمى بـ Les oevres Minuers. كما كان يود أن يفرغ لعمل دراسة عن العلاقة بين الموسيقى والأدب فى عصر دانتى .

ومن المشروعات التى راودته وشغلت تفكيره أيضاً ترجمة أعمال بترارکا.

كانت آماله العلمية كباراً ، ولكن المنية عاجلته قبل أن يحقق كل أحلامه. لقد عاش - رحمه الله - معظم حياته متفرغا لعلمه ، لا يشغله عنه ولد ولا زوجة ، فأعطى للعلم كل حياته . وفى عام ١٩٦٨ يشعر بحاجته إلى زوجة يسكن إليها ، فيتزوج بمن أحب لتكمل معه بقية الطريق الذى قطع الشطر الأكبر منه بمفرده .

ولكن تشاء الأقدار أن يفزع فى موتها فى ظروف غامضة ، فيحزن لفقدها حزنا شديداً ، ويبكيها بكاء مرا حتى آخر أيام حياته . وما زاد من وقع الصدمة على نفسه تناول الصحافة هذا الأمر بما يزيد من عمق جراحه.

وتقضى مشيئة الله أن تنعاه مصر وسط أنباء معاركها وفى يوم وفاة عميد الأدب العربى المرحوم طه حسين ، فيضيع نبأ وفاته فى زحمة الأحداث .

وكأننى فى هذا الموقف أردد ما نظمه شوقى أمير الشعراء فى رثاء مصطفى لطفى المنفلوطى لوفاته يوم الاعتداء على حياة سعد زغلول ، وهياج الأمة لهذا الحادث الجلل ، قوله:

اختــــترت يوم الهول يوم وداع
ونعـــاك فى عصف الرياح الناعى
هتف النعاة ضحى فأوصـــد دونهم
جرح الرئيس منافـــذ الأسماع
من مات فى فزع القيامة لم يجد
قدما تشيع أو حفاوة ســـاعى

رحم الله الفقيد رحمة واسعة ، وجزاه جزاء العلماء الصابرين ، لما قدم لمصر وللعلم من خدمات .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟